حوار خاص

لابد أنه الإحساس الكامل بالسيادة . السيارة موتور قوى يئز أزيز الاتصال واللاخلل . عجلة القيادة فى يدى كالريشة . بحركة أصبع أقود . بحركة قد أندفع . أنا السيد . على الأقل سيد الكون كله إلا موتور حركة . الكهرباء موتور . الذرة موتور . البنزين موتور ..

أنا الإرادة . أنا العاقل الكامل وسط أكوام وأحراش من اللاعقل واللاوعى واللاإرادة ..

الطريق وسط الصحراء قاحل وأسود ولامع . الوحشة تزيدنى إحساسا.. بالتفرد . كأنى الكامل وحدى فى هذه الدنيا . والدنيا طريق أسود طويل ليس فيه سوى الأفق . بعد كل أفق أفق . الدنيا أنا وأنا الدنيا . سعيد . منذ بضعة أشهر نجوت من موت محقق . قال لى الطبيب : حظلك نار . لابد أنك تملك فى جسدك قدرات غير عادية .

ما أحلى الثقة بالجسد . إنها كالثقة فى عربة خارجة لتوها من (الأجنس) . القوة . نعبدها حتى فى أجسامنا . بالذات فى أجسامنا . زهو أنى انتصرت . كان الموت فوق القلب تماما ، لكن القلب طرد الموت . بل نحت الحسد فى وجه الطبيب وهو يقول : أتعرف أن قلبك بعد المرض أقوى وأكثر صحة مما كان قبل الأزمة . هذا النوع من الأزمات أعرفه . أخرج من الأزمة لأدخل فى أخرى . لأعود أخرج منها أقوى . إرادتى شحذتها الأزمات ، تعال إذن يا إلهى العظيم نتحادث . ما أروع الحديث معك فى هذا المكان القحل ، فى طريق صحراوى لا ناقة فيه ولا نبتة . إنها قصة طويلة طويلة لى معك . واسمح لى ألا أخاطبك بألقاب التعظيم فقد استعملها الناس كثيرا فى مخاطبة الطغاة والحكام حتى أصبحت غير جديرة بك . تلك الأزمة الخاطفة التى مرت بى لم أرك فأنت لا ترى . ليست بالخارج ، أنت هنا فينا أقرب إلينا من حبل الوريد .

أنا الذات الصغرى بنت الذات الكبرى . أنا المخلوق وأنت الخالق والبرزخ الكائن بيننا مالا نهاية فى الصغر وما لا نهاية فى الكبر لأنه برزخ بابك وبرزخ قدرتى . أنا يا إلهى لا أحب أن أعبدك عبادة هؤلاء الذين يتذللون لك ، فلقد خلقتنا فى أعظم تكوين وأن ننزل حتى لك معناه أننا نحد من قدرتك ، فمخلوقك لابد أن يتيه ولا

يحنى الهامة ، وإذا كنا نسجد لك فى الصلاة فإنما لنرتفع بقيمنا وابتهالاتنا إلى مكانك . وقد لا يكون هذا رأى الجميع ولكنى أعبدك عبادتى الخاصة بطريقتى أنا . ولست المسئول عن هذا يا إلهى فأنت الذى خلقتنى هكذا ، متمردا لا يقبل الضيم ، رافضا لا يقبل المساومة طامحا للكمال فى كل شىء حتى يصبح كل شىء قريبا من كمالك . أنا هكذا لم أخلق نفسى ولكنك من ملايين الملايين من الذرات والجزئيات والوراثات والتأثيرات والخواص اخترتنى لأكون هكذا وتكون لى شخصيتى تلك .

* * *

كانت العربة تنطلق بسرعة مائة وعشرين كيلو مترا ، وكان الصمت — إلا من أزيز الهواء والموتور — كاملا . صمت الصحراء الأصفر . صمت الكون حين تتوقف حركة الخارج وكأنه مات . وخفت . أحسست أن المضى فى أفكار كهذه سيخرجنى بعد حين عن إطار الجاذبية وأنطلق فى الفضاء حتى أهلك تماما فى قلب الشمس . ولكنك هكذا خلقتنى . حتى لو عرفت أنى هالك فى قلب الشمس لن أتوقف . لا أكتمك — إلهى — أنى ظللت وأنا فى المستشفى أتفكر فى مسألة الله والإنسان والعمر ، أنا أعرف علميا أن

الذى يحدد العمر هو الطاقة الحيوية المنبثة فى القلب وفى كل أنحاء الجسد . فأنا مررت بالأزمة إذن لأن الطاقة الحيوية عندى كانت الأقوى . ولكن المشكلة أن هذه الطاقة يعوقها عامل صغير ، مثل قشرة الموز يتزحلق فوقها قدم العملاق فينطرح أرضا فلماذا نجحت رحلة الأزمة من قشرة الموز .. الصدفة .. جائز . ولكن الصدف لا تتكرر إلا كل عشرات الملايين من المرات ، وثلاث مرات تكررت الأزمة ، واحدة فى الرقبة . وواحدة فى الوريد وواحدة فى القلب . أنا إذن حالة فى كل ألف مليون مرة . هكذا العلم يقول . علمنا القاصر الآن عن إيجاد علاج لأزمة البرد . ولكنه حد علمى وحد تفكيرى . أما ما هو خارج فلابد أن الله يحبنى وقد اختارنى لأعيش حتى ولو كان الاختيار مرة من ألف مليون مرة . أنت إذن تحبنى أيها الإله . تحبنى لأنى هكذا . ربما أيضا لأنى أقف وقفة المحب أتساءل دون أن يرتجف قلبى من الهلع القاصر ودون أن تصطك أسنانى وإنما بثقة المحب المحبوب وبحريته أسأل . وبنفس هذه الثقة أقود السيارة ، منطلقـــا بهذه السرعـــة ، سيـــدا ، سعيـــدا ،

حرا ، أزاول الإنسان الحر الذى فىّ كله ، أزاوله حتى فى مواجهة الخالق يا ذا الخالق . أيها الضارب بعيدا فى أغوار الكون حتى ينتهى النور ، وأبدا لا ينتهى النور لأنك لا تنتهى ، الضارب بعيدا فى أغوار الماضى وآفاق المستقبل حتى ينتهى الزمن،وأبدا لا ينتهى الزمن لأنك أبدا لا تنتهى ، لأنك أبدا لا تبدأ ، لأنك أبدا لا تغيب ، أبدا لا تحضر ، أبدا لا تعرف لأنك العارف ولا تنسى لأنك الذاكر ، ولا تخلق لأن كل شىء من خلقك ، لأنك أنت كل شىء ، أنت شعلة فى كل شىء ، وميض التغيير المستمر إلى أفضل والأفضل والأفضل ، تجسد الطاقة مادة ، والمادة حياة ، والحياة عقلا،والعقل إنسانا أسمى وأسمى وأسمى ، إلـٰه أصغر .

ومع هذا فإنى أسأل : أهذا هو مجرد شعور الفالت من خطر ، مجرد تجسيد لهواجس تربينا فى ظلالها وحواديت سردت علينا ونحن صغار ، وعلماء عجزوا عن التفسير فقالوا : الله .

آأنت حقا هناك يا إلهى ؟!

* * *

وصمتت أفكارى عن أن تمضى . دق قلبى كأنى دخلت بالقدم فى حرم مقدس . تخطيت عتبة الممكن والمباح . حملتنى السيارة فوق الطريق ، وفوق الصحراء ، وقائدها أنا اخترقت عنان السماء أتلفت

حولى أتساءل عن (الحق) . ثانية واحدة مضت لا أكثر . أقل من ثانية ربما . وحدة الزمن الممكن أن يحسها ويدركها الإنسان . وبدأت أحس التغيير . أصبحت عجلة القيادة فى يدى أسهل وأخف كثيرا عما كانت . لكأنها تتحرك من تلقاء نفسها ، وكأن سيطرتى الروحانية أصبحت هى التى تخضع لها العجلة دون حاجة إلى توجيه من يدى .

ثم مروعا اكتشفت أن المسألة ليست شدة سيطرة من إرادتى على عجلة القيادة ، إنما الحقيقة الباردة المجردة أن عجلة القيادة نفسها من سيطرتى عليها . وبخبرتى مع العربات وحوادثها أدركت السبب . أن إطار العجلة الخلفية قد انفجر ببطء لم أسمعه وأن العربة نتيجة هذا ارتفعت عجلاتها الأمامية وأصبحت غير خاضعة مطلقا لتوجيه (الدركسيون) . هى التى تتوجه كيفما يحلو لها ، وفى أى اتجاه تشاء . وأنت هنا لا تستطيع أن (تفرمل) لأن مجرد لمس الفرامل يخل بتوازن العربة مع هذه السرعة العالية ويقلبها فورا .

صفر الخاطر فى رأسى :

بعنف ورعب واختلال مضى قلبى يدق . نظرة إلى أسرتى التى تحتل العربة معى زادتنى رعبا . ولداى من الخلف وزوجتى بجوارى

وابنتي الصغيرة وبراءة الدنيا في عينيها ستموت بعد ثوان . فكل شيء وكل خطر قد تكون بسرعة . الطريق الذي كان خاويا وامتلأ فجأة بعربات جيش لتعليم السواقة قادمة في الاتجاه المضاد ، وأي خلل في اتجاه العجل الأمامي للعربة سيجعلنا نرتطم الارتطامة القاتلة المهلكة في واحدة من العربات الكثيرة . أكثر من ثلاثين عربة ـــ واحدة وراء الأخرى .

تحول السيد في إلى أكثر كائنات الدنيا تواضعا وذعرا . تحت رحمة من أنا الآن . عجلات الكاوتش تسير كيفما تشاء . أي بروز في الأسفلت أو حجر ، بل حتى لو لم يكن هناك شيء بالمرة فاتجاه الريح ، ميل جانب أكثر من جانب ، عوامل ميكانيكية لا تعد ولا تحصى ، ألف مليون عامل وعامل قد يؤدي أي منها لأن تدفع عربتي تجاه أي عربة قادمة أو تجاه الصحراء وتتم الكارثة .

بينما الأولاد يضحكون وزوجتي مع الصغيرة تمرح والقيامة ستقوم بعد ومضة . وجدت نفسي أهتف ـــ يا ستار يارب . يا ستار يارب .

أي قوة أخرى في هذا الكون الواسع كان ممكنا أن تنقذني ، والكارثة ليست في ، الكارثة في هؤلاء الأبرياء ، ضحية اللعبة ،

الضاحكون ، السعداء سعادة من يعبرون عن السعادة . حتى ردا على هتاف : يا ستار يارب . ضحكوا وأغرقوا فى الضحك فلم يكن أمامهم ما يستحق أن أناديه . كل شيء فى نظرهم كان على ما يرام والدنيا جميلة والحياة ممتدة إلى أقصى مدى .

اليأس المطلق حل . لا فائدة . لا أملك أن أصنع شيئا . المصير بيده . هو وحده القادر ، الصدفة . الواحد فى الألف مليون ، تحت رحمته . لا أملك إلا أن أيأس وأجلس وأصرخ على زوجتى وهى تضحك أن تتشبث بالابنة وتحسبنى أهزل فلا خطر أمامها هناك وتبالغ فى تركها حرة تعبث . والعربات قادمة ، واحدة وراء الأخرى كل منها الموت متحركا ومقبلا ، والصحراء على يمينى مجرد انحرافة بسيطة تدخل العجلات فى بحر الرمال .

الأمل كله ، أن يحدث الأمر القاهر المعجز : أن تظل العربة تسير غير منحرفة يمينا أو يسارا وتظل تبطىء حتى تتوقف من تلقاء نفسها ، وإلى أن يحدث هذا ، فالموت فى كل ومضة وقت . فقدت الجاذبية الأرضية وفى طريقى أنا إلى قلب الشمس .

* * *

وقفت بجوار العربة . أخيرا ثبت كل شيء . قلبى هاجع وكأنه

هو الآخر توقف . حلقى جاف . السكون هائل الضخامة كأنه الكون . الأزيز متصل دائم . نملة رأيتها تناضل تحمل شيئا بين ذرات الرمل القليلة فوق حافة الطريق . مروع ومذهول ورأسى ذائب فى السكون نظرت إلى السماء إلى مثبت الدقة فى قلبى وبالحلق الجاف سألت هامسا : أهكذا يجيب الإله ! .